

الحرب الغربيّة على اللغة العربيّة: دراسة أنثروبولوجيّة وثقافيّة

د. لبنى المسعودي^١

المُلخَص

يتناول البحث الحرب الغربيّة على اللغة العربيّة بوصفها أحد مظاهر الهيمنة الثقافيّة والاستعماريّة التي استهدفت الهوية العربيّة الإسلاميّة وخصوصيّتها الحضاريّة. وينطلق من بيان المكانة التاريخيّة والحضاريّة للغة العربيّة، بوصفها لغة القرآن ووعاء للتراث والذاكرة الثقافيّة، وأداةً أساسيّةً في بناء الحضارة العربيّة الإسلاميّة وتوحيد فضاءها الثقافيّ. ويعتمد البحث المقاربة التاريخيّة والأنثروبولوجيّة للكشف عن آليات تهميش اللغة العربيّة، من خلال دور المستشرقين والبعثات التبشيريّة، والترويج للعاميّة على حساب الفصحى، وفرض اللغات الأجنبيّة في التعليم والإدارة، فضلاً عن السياسات الاستعماريّة الفرنسيّة والبريطانيّة الرامية إلى تفكيك الوحدة اللغويّة والثقافيّة. كما يناقش أثر العولمة والأمركة في تعميق تراجع مكانة العربيّة، واستمرار الهيمنة اللغويّة والثقافيّة في العصر الرقمي. ويخلص البحث إلى أنّ استهداف اللغة العربيّة يمثل جزءاً من مشروعٍ أوسع للهيمنة الثقافيّة، وأنّ الحفاظ عليها وتعزيز حضورها ضرورةٌ لحماية الهوية والاستقلال الحضاريّ والمعرفيّ.

الكلمات المفتاحيّة: الاستعمار الثقافيّ، اللغة العربيّة، الهيمنة الثقافيّة، الاستشراق، العولمة.

١. دكتوراه في التاريخ المعاصر / كلية الآداب بصفافس.

المقدمة

تعدّ دراسة اللغة العربية من المقاربات المركزيّة التي شغلت علوم عدّة، وخاصّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة؛ إذ ممّا لا شكّ فيه أنّ الحضارة العربيّة الإسلاميّة ارتبطت في نشأتها باللغة العربيّة بماهي لغة الإسلام والأدب، فكانت وسيلةً للإشعاع الثقافيّ العربيّ بعيد ظهور الإسلام وامتداد الفتوحات الإسلاميّة خارج شبه الجزيرة العربيّة. علاوةً على ذلك تمثّل اللغة العربيّة ظاهرةً متفرّدة؛ إذ لم تتقدّم ولم تندثر ثقافيّاً وحضاريّاً مثل ما آلت إليه بعض اللغات الأخرى، بل ظلّت متماسكةً لفظاً ومعنىً ومستوعبةً للثقافة والتراث العربيّ الإسلاميّ.

لكن بمجرد تراجع النفوذ العربيّ تراجعت مكانة اللغة العربيّة لتُشنّ ضدها حروبٌ ثقافيّةٌ قادها الغرب لضرب الهويّة العربيّة والتراث العربيّ. فعكفت القوى الغربيّة المستعمرة على وضع المخطّطات المختلفة بهدف اختراق الموروث الحضاريّ والفكريّ والثقافيّ العربيّ مستخدمةً وسائل عديدةً من أجل إقصاء اللغة العربيّة والقضاء على كلّ ما يميّزها عن غيرها من الشعوب. ولعلّ ذلك يتطابق مع مخطّط الغرب الامبرياليّ الذي يهدف إلى ضرب الخصوصية الثقافيّة للعالم العربيّ قصد الوصول إلى مرحلة التماهي والتماثل الثقافيّ الذي تذوّب فيه الهويّة العربيّة الإسلاميّة في الثقافة الغربيّة وهو ما روّج له الاستعمار على أيادي المستشرقين.

يزداد الأمر تعقيداً بتصاعد التحديات التي واجهت مصير اللغة العربيّة كازدواجيّة اللغة بين عاميّة وفصحى، وضغوطات العولمة التي عملت على تعميق الهوة بين العرب والعربيّة، حيث سعى الغرب إلى تهيمش اللغة العربيّة والقضاء عليها.

تأسيساً على ما تمّ ذكره نلاحظ أنّ مكانة اللغة العربيّة قد شهدت طفرات عدّة عبر الأمد الطويل، ممّا استوجب منا الاعتماد على المقاربة التاريخيّة والأنثروبولوجيّة لرصد هذه التحوّلات وللكشف عن تورط الغرب في إقصاء اللغة العربيّة كأداة للتواصل والفكر في إطار حربٍ ثقافيّةٍ وإيديولوجيّة. فكيف نفهم تفرّد اللغة العربيّة بين اللغات؟ وماهي آليات الحرب الغربيّة عليها؟

١. المميزات الحضاريّة والتاريخيّة للغة العربيّة:

تعريف اللغة العربيّة:

تعرف اللغة بأنّها «ملكة الإنسان الخاصّة بالجنس البشريّ، يستخدم أعضاء جماعة رموزاً صوتيّة

للتعبير والتواصل والتصرف^١، فالعلاقة إذن وطيدة بين الأنثروبولوجيا والألسنية التي تعرف اللغة بأنها مجموعة من المعطيات الرمزية^٢، حيث يرى «كلود ليفي شتراوس» أنّ اللغة قديمة قدم الإنسان، وأنّ ظهورها كان مبكراً جداً، وهي ظاهرة اجتماعية وثقافية^٣، ذلك أنّ كلّ لغة تعبّر عن ثقافة شعب ما^٤، وهي حاضنة للذاكرة الثقافية الجمعية^٥، كما أنّها تمثل جملة من الرموز الصوتية التي يعبر بها كلّ شعب عن احتياجاته^٦. تتمثل مهمة اللغة في تحقيق التواصل داخل أفراد المجتمعات الإنسانية، وهي إلى جانب ذلك أداة للتعبير عن المشاعر والأفكار، ووسيلة للإقناع وذلك وفق مجموعة الشروط والقواعد المتعارف عليها داخل المجتمع^٧. وهي إلى جانب ذلك وسيلة لحفظ التراث ورسم الهويّات المتعددة.

ولعلّه من المفيد التأكيد أنّ اللغة العربية تعدّ من أقدم اللغات السامية في العالم، رغم اختلاف علماء اللغات حول تصنيفها وتقسيمها إلى لغة سامية غربية (مثل الأوغراتية والكنعانية والآرامية...)، وسامية شرقية (كالأكديّة)، هذا إلى جانب السامية الجنوبية (العربية والحشية)^٨، أو في ما أنّها تنفّر عن السامية الأم مباشرة^٩. ويرى بعض الباحثين أنّها هي الأقرب إلى اللغة السامية الأم، وأنّها حافظت عبر الزمن على خصائص الأسرة السامية خاصّة في مجال جغرافي صحراوي^{١٠}، وقد تمّ العثور على نقوش قديمة (ثمودية وصفوية ولحيانية)، بين صحراء الجزيرة العربية وتخوم الشام والعراق والتي تتسم بأنّها منطقة شبه رعوية ونصف زراعية^{١١}.

١. بونت بيار وإيزار ميشال وآخرون معجم الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا، ص ٧٦٩.

2. Duranti A: Linguistic anthropology, Cambridge, Cambridge, press, 1977.

٣. شتراوس، كلود ليفي، الأنثروبولوجيا البنيوية، ص ٧٧.

٤. المصدر السابق، ص ٩٠.

٥. سعيد، حيدر، البناء التاريخي للغة العربية، ورد بآفاق اللسانيات دراسات - مراجعات - شهادات، ص ١٧٢.

6. A voir De Saussure F: Cours de linguistique générale, Paris, 1916.

٧. المتوكّل، أحمد، المنحى اللساني، ص ٣١.

٨. مؤلّف جماعي، في اللغة والهوية في الوطن العربيّ إشكاليّات تاريخيّة وثقافيّة وسياسيّة، ص ٢٤.

٩. بعلبكي، رمزي منير، التأويل المعجمي وموقع العربية بين الساميات المعجميّة، العدد ٢٣، ص ٢٠.

١٠. حجازي، محمود فهمي، اللغة العربية عبر القرون، ص ٢١.

11. A voir Littmann E: Thamoud und Safa, Leipzig, 1910.

نستنتج مما سبق ذكره أنّ اللغة العربيّة كانت منحصرةً في المجال البدويّ في شبه الجزيرة العربيّة ومنطقة نصف البدو المتناثرين في بادية الشام والعراق، هذا علاوةً عن بعض المدن العربيّة مثل مكّة والطائف، فكانت بذلك اللغة العربيّة لغةً محليّةً، ولم تنتشر إلّا بعيد ظهور الإسلام لتصبح بذلك لغة الحضارة العربيّة الإسلاميّة^١، بل ونجحت أيضًا في توحيد مختلف اللهجات العربيّة.

مكانة اللغة العربيّة في الحضارة العربيّة الإسلاميّة:

تتّبع اللغة العربيّة مكانةً مركزيّةً في مختلف البحوث الأنثروبولوجيّة والتاريخيّة والثقافيّة بما هي مكونٌ رئيسٌ للهويّة الثقافيّة والحضاريّة، كما أنّها ليست أداةً للفكر والتواصل فحسب، بل هي ذاكرةٌ تخزن الموروث وتنقله من جيلٍ إلى آخر. حيث تستمد اللغة العربيّة خصوصيّتها من كونها ارتبطت تاريخيًا بالحضارة العربيّة، هذا فضلًا عن كونها لغة القرآن.

مما لا شك فيه أنّ علاقتها الحضارة العربيّة الإسلاميّة باللغة العربيّة وثيقةٌ جدًّا؛ إذ كانت بمنزلة الروح لهذه الحضارة، وقد تكشف ذلك في الزمن الطويل أو الأمد الطويل كما سمّاه (فرناند بروديل)^٢؛ ذلك أنّ اللغة العربيّة لم تكن ثابتةً، بل تغيّرت مكانتها عبر الفترات التاريخيّة المختلفة والطويلة، إذ شهدت علاقة اللغة العربيّة لارتباطها بالهيمنة العربيّة تحولات وتقلّبات وتحديداً بين القرنين الثامن والثاني عشر لتبدأ مرحلة التراجع في القرن الثالث عشر ميلادي^٣.

لا بدّ من الإشارة في هذا الصدد إلى أنّ الفتوحات الإسلاميّة المختلفة أسهمت في نشأة عدّة مدن إسلاميّة كالكوّفة والبصرة وبغداد والقاهرة، التي كانت بمنزلة المنارات العلميّة، التي كان لها الفضل في ازدهار اللغة العربيّة وخاصّة منها الفصحى حيث «كان لكلّ هذه المدن على اللغة العربيّة الفصحى ابتداءً من لغة القرآن والأشعار التقليديّة المتوارثة فضل الصياغة أو إعادة صياغة وهي لغةٌ مصطنعةٌ يقينًا أو على الأصحّ «أدبيّة» سوف تصبح أداةً التعبير في كافة البلاد الإسلاميّة تمامًا كما كانت اللغة اللاتينيّة بالنسبة إلى شعوب الديانة المسيحيّة»^٤.

لقد تمكّنت اللغة العربيّة من توحيد المدن العربيّة رغم تنوّع اللهجات الإقليميّة وذلك زمن أوجها الحضاريّ فكانت «لغة أدبيّة، ولغة تفكيرٍ وتجمّع لغويّ، بل ومستهل حضارةٍ انبثقت في

١. حجازي، محمود فهمي، اللغة العربيّة عبر القرون، ص ٤٥.

٢. مجلة بيت الحكمة، مجلة مغربيّة للترجمة في العلوم الإنسانية فرنان بروديل، العدد الخامس، أبريل ١٩٨٧.

٣. بروديل، فرناند، تاريخ وقواعد الحضارات، ص ٧٨.

٤. المصدر السابق، ص ٨٠.

البداية في مدينة بغداد، ثم من بغداد سطعت أشعتها وتألقت بعيداً^١. وهذا ما أكسبها إشعاعاً عالمياً وأضفى عليها وإلى حد ما الهيمنة الثقافية والفكرية على بقية اللغات خاصة منها اللاتينية بوصفها اللغة الأكثر تداولاً زمن الحضارتين الرومانية والبيزنطية.

لقد كان للغة العربية الفصحى بما هي لغة القرآن والشعر التقليدي المتوارث الفضل في إرساء ونشأة (لغة أدبية) كما عبّر عن ذلك «فرناند برودال»^٢. فاللغة العربية تتطابق مع عصر الجاهلية وتحديدًا الشعر الجاهلي، وكذلك القرآن الكريم، والنقوش الإسلامية التي تميّزت بها الحضارة العربية الإسلامية، ولعلّه من المفيد التذكير بأنّ الفصحى تمثل مرحلة من مراحل تاريخ الحضارة العربية وهويتها^٣ التاريخية والثقافية.

في ضوء ما تقدّم نستنتج أنّ الحضارة العربية أسهمت في ترسيخ اللغة العربية التي تطوّرت عبر الأمد الطويل، فمن منظور اللسانيات فإنّ لكلّ لغة تاريخها الخاصّ بها الذي ينقسم إلى قسمين: تاريخ داخليّ خاصّ بها، يرصد كلّ التحوّلات والتغيّرات التي تطرأ على اللغة في مختلف الحُقب التاريخية، وتاريخ التطور الخارجي «الذي يدرس التغيّرات التي تطرأ على المجموعة اللغوية التي تنسب إليها تلك اللغة وعلى حاجتها اللغوية»^٤.

٢. آليات تهميش الاستعمار الغربي للغة العربية:

دور المستشرقين والأنثروبولوجيين:

لم يفوّت الغرب على نفسه فرصة تهميش اللغة العربية خاصة منذ القرن التاسع عشر من ذلك مثلاً دور حركات التبشير التي قادها الإنجليز في بلاد الشام، مثلما حصل بلبنان في القرن التاسع عشر حيث أسّسوا حوالي ثلاثين مدرسة ومعهد تأهيل. وإنّ هذه المدارس انتشرت أيضاً بدمشق والقدس لنشر اللغة الإيطالية والروسية والفرنسية والألمانية. كما لم تعد الكلية السورية الإنجيلية تدرس العلوم بالعربية، بل اعتمدت على اللغة الإنجليزية^٥.

١. المصدر السابق، ص ٨٠.

٢. المصدر السابق، ص ٨٠.

٣. مؤلف، جماعي، في اللغة والهوية في الوطن العربي إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، ص ٢٠.

٤. المصدر السابق، ص ١٠٤.

٥. حجازي، محمود فهمي، اللغة العربية عبر القرون، ص ٧١.

لعلّه من المفيد التشديد في هذا المجال على دور المستشرقين الذين دعموا ترسيخ اللغة العامية إلى حدّ تحوّل النزاع من ثنائية لغوية بين الفصحى والعامية إلى نزاعٍ ثلاثيٍّ بين العربية الكلاسيكية والعربية الميسرة والعامية بأنواعها^١؛ وهو ما تسبّب في (شللٍ ثقافيٍّ) للغة العربية. لقد اتّسعت الهوة بين العامية والفصحى إلى درجة عدّ هذه الأخيرة معرقلَةً للتطوّر وغير مواكبة لتطوّرات العصر، بل «لغة ملكٍ للقدماء، وأنها قد أدّت دورها في مرحلة من أهمّ مراحل الثقافة العالمية، أو أنّها صالحة لفك رموز التراث فقط»^٢. بالتالي فهي لغةٌ لم تتطوّر عبر العصور حسب المقولة الاستعمارية.

والملاحظ أنّ البحوث الأكاديمية للمستشرقين تراكمت حول اللغة المحلية العربية، من ذلك الدور الهام الذي لعبه (فيلهم شبيتا)^٣ الذي كان مدير دار الكتب الخديوية في القرن التاسع عشر بنشره كتباً علميةً عن قواعد اللغة العامية بمصر، والترويج لاستعمالها بالأحرف اللاتينية. تجدر الإشارة إلى أنّ دراسات (شبيتا) تواصلت مع خلفه (فوليرز)، حتى أنّ جريدة المقتطف المصرية أصبحت هي الداعم الأول لاستخدام العامية.

والجدير بالذكر أنّ المستشرقين هاجموا بنية اللغة العربية من ذلك ما أشار إليه المستشرق الإنجليزي (وكوك) من عدم قدرة أية لغةٍ ترجمة اللغة العربية، ممّا اضطره إلى ترجمتها إلى اللغة اليونانية، هذا إلى جانب الصعوبة النحوية. في هذا الصدد تم استبدال الأحرف اللاتينية بالهجة العربية المالطية، ولا يختلف الأمر كثيراً في إسبانيا إذ هوجمت اللغة العربية منذ حرب الاسترداد حيث جعلت الأحرف اللاتينية بدلاً من الأحرف العربية^٤.

وفي السياق عقدت المؤتمرات الاستشراقية بهدف تدمير اللغة العربية ودعم اللغة العامية مثل مؤتمر المستشرقين في فيانا في ١٨٨٢م، ومؤتمر ستوكهولم في ١٨٨٩م، كما تتالت أيضاً البعثات الديبلوماسية خدمةً لمخطط تدمير اللغة العربية والحثّ على استخدام الأحرف اللاتينية بدلها.

أعلنت القوى الغربية الامبريالية الحرب على اللغة العربية باستعمال شتى الوسائل، فلا ننسى في هذا الصدد أنّ فرنسا أكّدت على علوية ومركزية اللغة الفرنسية بوصفها لغة حضارة، والترويج للمركزية الثقافية التي دعمها علمائها خاصة المستكشفين والأنثروبولوجيين. وهنا لا بدّ من الإشارة

١. مؤلف، جماعي، الاستشراق، ص ٩٨.

٢. المصدر السابق، ص ٩٨.

٣. المصدر السابق، ص ٩٨.

٤. أولي، ريدي لاسي، الفكر العربي ومركزه في التاريخ، ص ٢٣٩.

إلى دور الأنثروبولوجيا الكلاسيكية وخاصة منها المدرسة التطورية والانتشارية التي روجت لعلوية الحضارة الغربية في مقابل تدني باقي الحضارات^١.

ومن الأهمية بمكان التأكيد في هذا الإطار أنّ فرنسا لم تتردد في فرض اللغة الفرنسية كلغة تعليم وإدارة وإعلام في مستعمراتها العربية وخاصة شمال إفريقيا. كما عمد المستعمر الفرنسي إلى بث التفرقة العرقية بين العرب والبربر كتحرير الأمازيغ على كتابة لغتهم باللاتينية، وتأسيس مدارس خاصة بأطفالهم، من ذلك مثلاً ما حصل في المغرب في ١٩٣٠ إبّان إعلان الظهير البربري الذي قام على التمييز القانوني بين العرب والبربر^٢.

كما اعتمدت إنجلترا سياسة لغوية قائمة على التفرقة والتجزئة^٣، وذلك عبر التشجيع على العامية وهجر الفصحى، ولعلّ بواردر هذا المخطط يعود إلى القرن التاسع عشر عندما قام مهندسٌ بريطاني (وليام ولكوكس) بالدعوة إلى التكلّم باللهجة العامية ونشرها بمجلة الأزهر. هذا إلى جانب جهود القاضي البريطاني (ويلمور) بنشر العامية وجعلها لغة مصر الرسمية بعد كتابتها باللاتينية بـ(حجة أنّ الفصحى صعبةٌ وغير قادرة على التعبير عن الحضارة الحديثة، وأنّ الفصحى تربط أبناء مصر بالشرق)^٤. بل أكثر من ذلك إذ جاءت هذه الدعوة من المجلات المصرية مثل (المقتطف) في ١٩٠١ م.

نستنتج أنّ الغرب تمكّن من إرساء مشروع الازدواجية اللغوية بين اللهجة العامية (الدارجة) واللغة العربية الفصحى، هذا إضافة إلى فرض لغته (الفرنسية والإنجليزية)^٥ في التعليم. وهي ما تعرف بظاهرة (الانسحاب الحضاري) لهويته التاريخية والقومية والمعرفية. لا بدّ من الإشارة في هذا المجال إلى أنّ (كواسي كوا برا) Kwesi Kawa Prah هو أوّل من استعمل هذا المصطلح حول اللغات الإفريقية في إشارة إلى هيمنة اللغات الأجنبية على التعليم بإفريقيا في مقابل تهميش

١. لمزيد الاطلاع أنظر على سبيل المثال فهم حسين، قصة الأنثروبولوجيا: فصول في تاريخ علم الإنسان، عالم المعرفة، ١٩٨٦.

٢. مؤلف، جماعي، في اللغة والهوية في الوطن العربي إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، ص ٢٦٥.

٣. للاستزادة: أنظر حجازي محمود فهمي، اتجاهات المستشرقين في دراسة الحياة اللغوية في العصر الحديث، المجلة، القاهرة ١٩٦٦.

٤. حجازي، محمود فهمي، اللغة العربية عبر القرون، ص ٧٥.

٥. مؤلف، جماعي، في اللغة والهوية في الوطن العربي إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، ص ٢٠٢.

اللغات المحليّة^١. وذلك في إطار (عولمة التعليم) ببلدان الجنوب حيث كرّس الغرب (دول الشمال) مخططاً عُرف بـ(التجانس الثقافي)، الذي يهدف إلى القضاء على مظاهر الاختلاف والخصوصيّة لثقافة الشعوب والوصول إلى مرحلة التماثل والتماهي الثقافي والحضاري مع الحضارة الغربيّة .

لقد استهدف الغرب الهوية الثقافية العربيّة حتى يتلاشى لدى العرب الشعور بالانتماء إلى هويّة ثقافيّة عربيّة تمثّل المجال الرمزيّ لتكوّن الشعور بالانتماء^٢، والتضامن الوطني، وامتلاك تراث وتاريخ مشترك، ف«لا جدال في أنّ اللغة، في ظروف تاريخيّة واجتماعيّة خاصّة تقوم فعلاً بدور الممثل البارز والمرجعيّة الأساسيّة للهويّة الاجتماعيّة والوطنية^٣». وبالتالي تضعف الهوية العربيّة الإسلاميّة لتحلّ محلّها ثقافات غربيّة وغربيّة عنها تهيمن على المجتمعات العربيّة، وتؤثر فيها، وقد تعمّق هذا التوجّه مع العولمة التي روّجت للثقافة الأحاديّة والكونيّة.

دور العولمة:

إنّ العولمة تهدف إلى إنشاء قرية عالميّة تنمحي فيها الحدود لتصبح مندمجة، فيسهل بذلك نشر الثقافة الغربيّة وذلك بعد توحيد جميع اللغات وإذابة خصائصها. فالعولمة لا تعني تركيز نشاط اقتصادي عالميّ فحسب وإنّما تتجاوزه لتشمل المجالات الثقافية والاجتماعيّة، فهي تخترق خصوصيّات الدول، وتسعى إلى غزوها ثقافيّاً. في هذا السياق العالميّ لم تنأ العولمة عن السيطرة على اللغة العربيّة في محاولة إلى القضاء عليها استكمالاً للمخطط الذي قاده المستشرقون والمستعمرون.

لقد أسهمت العولمة في تراجع اللغة العربيّة بالتشجيع على استخدام اللغات الأجنبية «باعتبارها لغة المعرفة، ولغة السوق، والمؤهل الأساسيّ لوظيفة المستقبل»^٤، إذ لعبت العولمة دوراً كبيراً في في تهميش اللغة العربيّة والترويج للثقافة الغربيّة، من ذلك مثلاً (ضغط الأمركة) الذي تسارع مع نهاية الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفياتي.

ويبدو أنّها ليست ظاهرة حديثة، بل تعود إلى عشرينيّات القرن الماضي حيث ندّد بها العديد

1. ParahKwesi Kawaa : African Languages for the Mass Education of Africans, Bonn, German Foundation for International Development ,p 65.

٢. للاستزادة: انظر الدواي، عبد الرزاق، الهوية الثقافية جدليّة الثقافة والمثاقفة ملف إشكاليّة الهوية، ص ٧٥-١٠٩.

٣. مؤلّف، جماعيّ، في اللغة والهويّة في الوطن العربيّ إشكاليّات تاريخيّة وثقافيّة وسياسيّة، ص ٢٣١.

٤. عسّاف، علي حسن، العولمة وأثرها في اللغة العربيّة، ص ٤٥٦.

من المفكرين الأوروبيين وأطلقوا صيحة فزع حول نهاية الثقافة الأوروبية وانحطاطها^١. ورغم تفتّن الأوروبيين إلى خطورة الغزو الثقافي الأمريكي، فإن العرب كانوا المثال الأنسب لتلقي هذه الثقافة إذ «في نهاية الحرب الباردة، ومع زوال الأيديولوجيا الشيوعية المنافسة والانفتاح الاقتصادي الذي فرضته العولمة، ازدادت أكثر من أي وقت مضى، الرغبة الأمريكية في تصدير النموذج الأمريكي الذي تُعدّ الإنكليزية الوعاء الحامل لها»^٢. وذلك باعتراف أكبر موظفيها الساميين^٣.

والملاحظ أنّ الأمركة استهدفت اللغة العربية وعدتها متناقضة ولا تتماشى مع العولمة، وأنّها لا تواكب التغيرات التكنولوجية المتسارعة؛ لذلك سعت إلى بثّ الثقافة الأمريكية بواسطة الوسائل التي أتاحتها العولمة من تكنولوجيا الإعلام والاتصال والقنوات التلفزية.

ختاماً نشدّد على أنّ تركيز التغريب والغزو الثقافي الذي مارسه الغرب منذ تراجع النفوذ العربي الإسلامي، خضع لمخططات دقيقة بهدف ضرب اللغة العربية وتهميشها بحجّة جمودها وعدم قدرتها على تطوير نفسها. في الواقع لقد مارست القوى الغربية أنواع عدّة من الحروب الثقافية بدءاً بالبعثات العلمية التي قادها المستشرقون مروراً بالحدث الاستعماري الذي كرّس الهيمنة الإمبريالية على العالم العربي، ووصولاً إلى العولمة التي عمّقت الفجوة بين العرب ولغتهم العربية لتحلّ محلّها اللغات الأجنبية. ولعلّه من المفيد التأكيد أنّ الحرب الغربية على اللغة العربية تندرج ضمن استراتيجية الغرب للهيمنة على الشعوب العربية، والقضاء على التنوع الثقافي العالمي حتى تنصهر كلّ الثقافات في بوتقة ثقافة كونية كبرى.

٣. المخطط الغربي لتدمير اللغة العربية:

ممّا لا شكّ فيه أنّ اللغة العربية تعرّضت إلى مؤامرة غربية كان هدفها تدمير أسس الحضارة العربية الإسلامية، والتي بدأت مع الحروب الصليبية حيث بنيت الجامعات والمعاهد من أجل تدريس اللغة العربية والثقافة العربية، مثل مدرسة (يمس) في عهد البابا (سلفستر الثاني)^٤ في القرن الحادي عشر. ليتعمّق هذا المخطط مع الحدث الاستعماري/الإمبريالي في القرن التاسع عشر. فالاستعمار

١. مؤلف، جماعي، في اللغة والهوية في الوطن العربي إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، ص ١٢٦.

٢. مؤلف، جماعي، في اللغة والهوية في الوطن العربي إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، ص ١٢٧.

3. Schiller Herbert: Vers un nouveau siècle d'impérialisme américain, Le Monde diplomatique, p18.

٤. الإمام أبو نصر، محمد بن عبد الله، المؤامرة الغربية على اللغة العربية، ص ١١-١٢.

الغربيّ خطّط على مرّ القرون الوسطى والحديثة للقضاء على اللغة العربية التي هي لغة القرآن، وفي مقابل ذلك فرض لغته بقوة على الشعوب المستعمرة في مجال التعليم والإدارة.

لقد عمل الاستعمار الغربيّ على تدمير الثقافة العربية الإسلامية عبر إزاحة اللغة العربية، والحقيقة فقد تمّت هذه المؤامرة منذ الفترة القروسطية حيث سرقت المخطوطات العربية وأمّهات الكتب العلمية، بل وأفردت معاهد لتدريس اللغة العربية جنباً إلى جنب مع الكلدانية وغيرها من اللغات السامية القديمة، وذلك للاستفادة من العلوم العربية اخضاعها للتمحيص والتدقيق حتى يسهل تفتيتها وتهميشها بإرساء اللهجة العامية عوضاً عن الفصحى.

والواقع أنّ الاستعمار الغربيّ نفّذ مخطّطه التدميريّ عبر مراحل زمنية متلاحقة ليتعزز زمن العولمة، حيث أضحت عمليّات تفكيك اللغة العربية أيسر نتيجة التحوّلات الرقمية والذكاء الاصطناعي عبر المعالجة الطبيعية للغة والترجمة الآلية والتفاعل الصوتي الذكي وإنشاء المحتوى التوليدي^١. بالتوازي مع ذلك هيمنت اللغات الأجنبية المسيطرة على العالم وخاصة منها الإنجليزية.

إنّ ما يجب الإشارة إليه في هذا الصدد هو أنّ الاستعمار والعولمة هما وجهان لعملة واحدة، الهدف منها تنفيذ المخطّطات الغربية (الشيطنية) بهدف تدمير أسس الثقافة العربية الإسلامية و«السعي إلى خلق الفوضى حتى تتمكّن الدول المتقدّمة (خاصّة الولايات المتّحدة الأمريكيّة) من التحكم في الدول النامية، وذلك عبر دعم حركات التمرد والصراعات العرقية والطائفية والإثنية بينها»^٢.

هكذا نستنتج أنّ الغرب نفّذ مؤامره الهادفة إلى القضاء على اللغة العربية وضرب خصوصيّاتها الحضارية والتاريخية، وذلك عبر وسيلتين الاستعمار الإمبريالي والعسكريّ بداية مروراً بالاستعمار الثقافي ووصولاً إلى العولمة. وذلك من أجل تصفية الآخر.

الخاتمة:

نؤكّد في الختام على عراقة اللغة العربية وتفردّها من الناحية الجمالية والمعجمية، علاوة عن استيعابها الحضارة العربية الإسلامية منذ نشأة الإسلام. فمثّلت بذلك أسساً من أسس هذه الحضارة ورافداً من روافد هويّتها. غير أنّ الاستعمار الغربيّ حاول وبشتّى الوسائل شنّ حرب ثقافية وفكرية على اللغة العربية حتى يتمكّن من تهميشها وفرض لغته الأجنبية، وقد بدأ هذا الأمر منذ نشأة

١. بوقفة، رؤوف، روح اللغة، ص ٣٨.

٢. المسعودي، لبنى، الغربية زمن العولمة، ص ١٥٨.

التوسّعات الإمبرياليّة والاستعماريّة نهاية القرن التاسع عشر تزامناً مع وهن الإمبراطوريّة العثمانيّة وتآزّم أوضاع ولاياتها في الشرق والغرب الإسلاميّين.

لعلّه من المفيد التأكيد في هذا الصدد أنّ الحرب الغربيّة لم تستهدف اللغة العربيّة فقط، وإنّما شملت البنى التقليديّة للمجتمع العربيّ مثل النظام القبليّ، حيث تراكمت الدراسات التاريخيّة والأنثروبولوجيّة بهدف إثبات إنقسام هذه المجتمعات القبليّة وتفرّقها خدمةً للنوايا الإمبرياليّة الغربيّة.

قائمة المصادر والمراجع

المراجع العربية:

١. ابن خلدون (عبد الرحمن)، مقدّمة ابن خلدون تحقيق علي عبد الواحد وافي، القاهرة ١٩٦٢.
٢. أوليري (دي لاسي)، الفكر العربيّ ومركزه في التاريخ، ترجمة إسماعيل البيطار، دار الكتاب، بيروت، ١٩٧٢.
٣. الحمزاويّ (محمّد رشاد)، تأسيساً للمعجم التاريخيّ العربيّ منزلة «التضمين» من التطوّر اللغويّ ومن الأساليب والأسلووية، ورد ضمن آفاق اللسانيّات، دراسات - مراجعات - شهادات، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، ٢٠١١.
٤. الإمام أبو نصر محمد بن عبد الله، المؤامرة الغربية على اللغة العربية، اليمن، صنعاء، مكتبة الإمام الألباني، ط ١، ٢٠٠٩.
٥. الدواي (عبد الرزاق)، الهوية الثقافية جدلية الثقافة والمثاقفة، ملف إشكالية الهوية، المناهل، وزارة الثقافة المغربية، العددان ٧١ و ٧٢، سبتمبر ٢٠٠٤.
٦. المتوكّل (أحمد)، المنحى اللسانيّ الوظيفيّ في الثقافة العربية، ورد ضمن آفاق اللسانيّات، دراسات - مراجعات - شهادات، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، ٢٠١١.
٧. بونت (بيار) وإيزار (ميشال) وآخرون، معجم الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا، ترجمة مصباح الصمد، الطبعة الثانية، ٢٠١١.
٨. الموسى (نهاد)، اللغة العربية وسؤال المصير، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، الطبعة الأولى، ٢٠١٣.
٩. بعلبكي (رمزي منير)، التأويل المعجميّ وموقع العربية بين الساميّات، المعجميّة، العدد ٢٣/٢٠٣.
١٠. بروديل (فرناند)، تاريخ وقواعد الحضارات، ترجمة حسين شريف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩.
١١. حجازي (محمود فهمي)، اتّجاهات المستشرقين في دراسة الحياة اللغوية في العصر الحديث، المجلة، القاهرة ١٩٦٦.
١٢. حجازي (محمود فهمي)، اللغة العربية عبر القرون، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٨.
١٣. سعيد (حيدر)، البناء التاريخيّ للغة العربية، ورد ضمن آفاق اللسانيّات، دراسات - مراجعات - شهادات، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، ٢٠١١.
١٤. شتراوس (كلود ليفي)، الأنثروبولوجيا البنيوية، ترجمة مصطفى صالح، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القوميّ، دمشق، ١٩٧٧.
١٥. مؤلّف جماعيّ، الاستشراق، سلسلة كتب الثقافة المقارنة، درالشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠.

١٦. مجلة بيت الحكمة، مجلة مغربيّة للترجمة في العلوم الإنسانيّة، فرنان بروديل، العدد الخامس، أبريل ١٩٨٧.

١٧. فهم (حسين)، قصة الأنثروبولوجيا: فصول في تاريخ علم الإنسان، عالم المعرفة، ١٩٨٦.

١٨. عسّاف (علي حسن)، العولمة وأثرها في اللغة العربيّة، الحداثة، ٢٠١٩.

المراجع الأجنبية:

19. De Saussure(F) : Cours de linguistique générale, Paris, 1916

20. Duranti(A) : Linguistic anthropology, Cambridge, Cambridge, press, 1977.

21. Schiller (Herbert) : Vers un nouveau siècle d'impérialisme américain, Le Monde diplomatique, 1998.

22. Littmann(E) : Thamoud und Safa, Leipzig, 1910.

23. Parah (Kwesi Kawaa) : African Languages for the Mass Education of Africans, Bonn, German Foundation for International Development, 1995.